

الفصل الخامس

وفاته

استمرت الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام على يد أبي عبيدة بن الجراح فحل بأرض الأردن وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ، ثم سار إلى بعلبك وإلى حماة فصالحه أهلها ثم إلى أنطاكية حتى أتم سورية ، وجعل على كل كورة فتحها عاملا ورتب فيها المراقبة والجيش ونظم شئون البلاد بالعدل والرفقة والأناة ، حتى أن تفشى الطاعون في البلاد سنة ١٨ هـ ، وهو الطاعون المعروف باسم طاعون عمواس ، وعمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس بناحية الأردن . فاجتاح السكان وأتى على آلاف المسلمين فحصدهم حصدا .

ولما اشتعل المرض وبلغ ذلك عمر ، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه : أن سلام عليك ، أما بعد : فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا أن لاتضعه من يدك حتى تقبل (إلي) ، فعرف أبو عبيدة ما أراد فكتب إليه : يا أمير المؤمنين قد عرفت حاجتك إلي وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضائه فحللني من عزيمتك ، فلما قرأ عمر الكتاب بكى فقال الناس : يا أمير المؤمنين أ مات أبو عبيدة ؟ فقال : لا وكأن قد ، وكتب إليه عمر ليرفعن بالمسلمين من تلك الأرض فدعا أبا موسى فقال له : ارتد للمسلمين منزلا قال : فرجعت إلى منزلي لأرتحل فوجدت صاحبتي قد أصيبت فرجعت إليه فقلت له : والله لقد كان في أهلي حدث ، فقال : لعل صاحبتك أصيبت ، قلت : نعم ، قال : فأمر ببيعيره فرحل له فلما

وضع رجله في غرزه طُعن ، فقال : والله لقد أصبت ، ثم سار بالناس حتى نزل الجابية ، وكان أبو عبيدة قد قام في الناس (خطيبا) فقال : أيها الناس إن هذا الوجد رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه .

ثم قال : وإني موصيتكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا وحجوا واعتصموا وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ، ولا تهلككم الدنيا ، فإن امرأ لو عُمر ألف حَوْلٍ ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذي ترون . الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون . وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده . والسلام عليكم ورحمة الله .

وكان معاذ بن جبل حاضرا ، فاستخلفه على الناس وقال : يا معاذ بن جبل صل بالناس . وطعن فمات ، وصلى عليه معاذ بن جبل ونزل في قبره هو وعمرو بن العاص والضحاك بن مزاحم ثم قام معاذ بن جبل في الناس فقال : يا أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا ، فإن عبدا لا يلقي الله تائبا من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له ، من كان عليه من دين فليقضه ، فإن العبد مرتين بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) أخاه فليلقه فليصالحه ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث ، والدين عظيم ، إنكم أيها المسلمون فجعتكم برجل ما أزعم أنني رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حبا للعامة ولا أنصح للعامة منه . فترحموا عليه - رحمه الله - واحضروا الصلاة عليه^(١) .

واستعمله سيدنا عمر على الشام حين مات أبو عبيدة .

(١) انظر كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، رفيق العظم ، ص ٥٢٠ .

٢ - ذكر مرضه

عن طارق بن عبد الرحمن قال : وقع الطاعون بالشام فاستغرقها فقال الناس : ما هذا إلا الطوفان إلا أنه ليس بماء ، فبلغ معاذ بن جبل فقام خطيبا فقال : إنه قد بلغني ما تقولون ، وإنما هذه رحمة ربكم ودعوة نبيكم وكموت الصالحين قبلكم ، ولكن خافوا ما هو أشد من ذلك : أن يغدو الرجل منكم من منزله لا يدري أمؤمن هو أم منافق وخافوا إمارة الصبيان^(١) .

وعن شهر بن حوشب ، عن راية - رجل من قومه ، كان شهد طاعون عمواس - قال : لما اشتعل الوجد^(٢) قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيبا فقال :

أيها الناس : إن هذا الوجد رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه .

قال : وطعن^(٣) ، فمات - رحمة الله عليه - واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال : أيها الناس إن هذا الوجد رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم ، وإن معاذ يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظه .

قال : فطعن ابنه عبد الرحمن . قال : ثم قام فدعا ربه لنفسه فطعن في راحته فلقد رأيتَه ينظر إليها ثم يقبل ظهر كفه ثم يقول : ما أحب أن لي بما فيك شيئا من الدنيا . فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص .

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، ص ٤٩٧ - ٥٠٢ .

(٢) اشتد وانتشر ، وهو من المجاز ، وعمواس : بفتح العين والميم ، وهو الأشهر : بليدة في فلسطين بين الرملة وبيت المقدس ، بدأ فيها الطاعون الجارف أيام عمر بن الخطاب ، مات فيه خمسة وعشرون ألفا منهم أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان .

(٣) أصابة الطاعون .

وعن عبد الله بن رافع قال : لما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف على الناس معاذ بن جبل . واشتد الوجد فقال الناس لمعاذ : ادع الله أن يرفع عنا هذا الرجز^(١) . فقال : إنه ليس برجز ولكنه دعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم ، وشهادة يختص الله بها من يشاء من عباده منكم ، أيها الناس : أربع خلل من استطاع منكم أن لا يدركه شيء منها فلا يدركه شيء منها ، قالوا : وما هن ؟ قال : يأتي زمان يظهر فيه الباطل ويصبح الرجل على دين ويمسي على آخر ، ويقول الرجل : والله لا أدري علام أنا ؟ لا يعيش على بصيرة ولا يموت على بصيرة ، ويعطى الرجل من المال مال الله على أن يتكلم بكلام الزور الذي يسخط الله ، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفى من هذه الرحمة .

فطعن ابنه فقال : كيف نجدانكما ؟ قال : يا أبانا ، « الحق من ربك فلا تكن من الممترين »^(٢) ، قال : وأنا ستجداني إن شاء الله من الصابرين . ثم طعنت امرأته فهلكتا وطعن هو في إبهامه فجعل يمسه بفيه ويقول : اللهم إنها صغيرة فبارك فيها ، فإنك تبارك في الصغيرة ، حتى هلك .

وعن الحارث بن عمير قال : طعن معاذ وأبو عبيدة وشرحبيط بن حسنة ، وأبو مالك الأشعري في يوم واحد . فقال معاذ : إنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم وقبض الصالحين من قبلكم ، اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة . فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن بكُرّه الذي كان يكنى به وأحب الخلق إليه . فرجع من المسجد فوجده مكروبا فقال : يا عبد الرحمن كيف أنت ؟ فقال : يا أبت « الحق من ربك فلا تكن من الممترين »^(٣) فقال معاذ : وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين^(٤) . فأمسكه ليلته ثم دفنه من الغد .

(١) الرجز : العذاب المضيق ، وبه سمي الطاعون .

(٢) (٣ ، ٢) من آل عمران ، الآية : ٦٠ .

(٤) والآية هي « ستجدني إن شاء الله من الصابرين » سورة الصافات ، الآية ١٠٢ .

عن جنادة بن أبي أمية قال : دخل قوم على معاذ بن جبل في مرضه ، فقالوا له : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم تنسه ولم يشبهه عليك . فقال : أجلسوني ، فأخذ بعض القوم بيده ، وقعد بعض القوم وراءه ، فقال : لأحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم أنسه ولم يشبهه علي ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما من نبي إلا وقد حذر أمته الدجال ، وأنا أحذركم أمر الدجال ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرأه الكتاب وغير الكتاب ، معه جنة ونار ، فناره جنة وجنته نار » (١) .

ولما حضره الموت . قال : انظروا أصبحنا ؟ فأنى فقيل : لم تصبح ، فقال انظروا أصبحنا ؟ فأنى فقيل له : لم تصبح حتى أتى في بعض ذلك فقيل : قد أصبحت . قال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، مرحباً بالموت مرحباً ، زائر مغرب ، حبيب جاء على فاقة . اللهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكبرى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر (٢) .

وكانت وفاته سنة ثمانية عشر من الهجرة ، وختم الله له بالشهادة — فالطاعون شهادة لكل مسلم — وهو ابن ثمان وثلاثين سنة على الصحيح (٣) . ودفن في شرق غورييسان في الشام بالقرب من قرية القصير (٤) من شرقها .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، نشرة توري ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) أبو نعيم ، حلية الأولياء ، ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ابن حجر ، نهذيب التهذيب ، ١٠ / ١٨٦ .

(٤) قصير المعينى ، انظر العمري ، مسالك الأبصار ١ / ٢١٧ ، وياقوت ، معجم البلدان ، ٣٦٧/٤ حيث جاء أنها قصير معين الدين بالغور من أعمال الأردن .

وقال النويري^(١): إن قبره معروف هناك ، وإنه زاره غير مرة ، وإن بينه وبين قبر أبى عبيدة نحوًا من مرحلة .

قال ابن حزم في الفصل: (٢) لو عمرّ الإنسان الدهر كله في طاعات متصلة ، ما وازى عمل امرئ صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

والواقع أن المرء مهما كتب وأسهب في الكتابة ، ومهما شرح وأطال في الشرح ، فلن يستطيع أن يوفى هذا الصحابي الجليل حقه ، فهو ركن ركين من أركان الإسلام ، ونجم ساطع من نجوم الهدى ، غير أننا سنظل دائما أبدا نردد قوله رسولنا الكريم وهو يمتدحه : « نعم الرجل معاذ بن جبل » (٣).

حقا ! لقد كان معاذ بن جبل نعم الرجل ! رضى الله عنه وأرضاه ، وروح روحه الطاهرة ونور ضريحه وطيب ثراه .

(١) نهاية الأرب ٣٥٨/١٩ . وقبر أبى عبيدة بن الجراح في قرية يقال لها عَمْنَا بالأردن ، ياقوت المرجع السابق ، ١٥٣/٤ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٦٨ / ٥ .

(٣) من حديث حسن أخرجه الترمذى في كتاب المناقب ، باب ٣٣ (٦٢٥/٥) .

المصادر والمراجع

١ - مصادر رئيسية

- القرآن الكريم
- كتب السنة والمسند

٢ - مخطوطات

- القاضي ، حاجي مصطفى
- مجموعة اللطائف وصندوق المعارف ، ليدن رقم ٤٠٠
- المنوي ، عبد الرؤوف
- مخطوطة شستريتي رقم ٣٦٢٦
- مجموعة - مخطوطة الاسكوريال رقم ٧١٠
- مجموعة - مخطوطة باريس رقم ٥٠٧٥

٣ - المؤلفات

- ابن الأثير الجزري ، عز الدين عبد الكريم الشيباني
- الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٠
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طهران ، ١٣٤٢ هـ
- عبد الباقي ، محمد فؤاد
- ١ — مفتاح كنوز السنة
- ٢ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي
- صفة الصفوة ، حيدر أباد ، الدكن ، ١٣٥٥ هـ

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي
— تهذيب التهذيب ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، الدكن
١٣٢٥ هـ

— الإصابة في تمييز الصحابة ، مصر ، ١٣٢٣ هـ

ابن حجر الهيثمي : أحمد بن محمد الشافعي

مجمع الزوائد ، مصر ، ١٣٢٥ هـ .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد

الفصل في الملل والأهواء والنحل ، بيروت ، ١٩٨٥

ابن خلكان ، شمس الدين

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ، ١٩٧٨

ابن أبي الدنيا ، عبد الله بن محمد

— ذم الدنيا ، طبعة القدس ، ١٩٨٤

الذهبي ، شمس الدين بن قايماز الفارقي

— المغازي ، نشرة محمد محمود حمدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة

١٩٨٥

الروندي ، ابن عباد

— غيث المواهب العلية ، القاهرة ، ١٩٧٠

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد

الطبقات الكبرى : بيروت ١٩٥٧ م

السيوطي ، جلال الدين بن بكر

— الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، الطبعة الخامسة ،

القاهرة ، ١٩٨٢

الطبري ، جعفر بن جرير

— تاريخ الرسل والملوك ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٧٧
طه حسين

— مرآة الإسلام ، القاهرة ، ١٩٥٩

ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن .

— فتوح مصر وأخبارها ، نشرة توري ، ليدن ، ١٩٢٠

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف الثمري القرطبي

— الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، الجزء الثالث ، القاهرة

(على هامش الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، مصر
١٣٢٣ هـ)

العظم ، رفيق

— أشهر مشاهير الإسلام ، القاهرة ، ١٩١١

ابن العماد ، عبد الحي الحنبلي

— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الثانية ،
بيروت ، ١٩٧٩ .

العمرى - ابن فضل الله

مسالك الأبصار ، بيروت ، ١٩٨٦

الغزالي ، الإمام أبو حامد

— إحياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٩٣٩

ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري

— المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨١

ابن قدامة ، موفق الدين

— كتاب التوايين ، دمشق ، ١٩٦١

- قنديل ، عبد المنعم
- حياة الصالحين ، القاهرة ، ١٩٨٥
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩
- نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ، القاهرة ١٩٥٩
- المقرئ ، أحمد بن محمد
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، بيروت ، ١٩٦٨
- المنأوي ، عبد الرؤوف
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، القاهرة ، ١٩٣٦
- كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق (على هامش الجامع الصغير للسيوطي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨٢)
- النابلسي ، عبد الغني
- الحقيقة والمجاز ، القاهرة ، ١٩٨٦
- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحق
- الفهرست ، طبعة طهران ، ١٩٧٠
- أبو نعيم الأصفهاني ، أحمد بن عبد الله
- حلية الأولياء ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٨٠
- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، ١٩٧٥ (الجزء التاسع عشر)
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك
- السيرة النبوية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت
أبو عبد الله يحيى بن أبى بكر العامري البمنى
— الرياض المستطابة ، بيروت ، ١٩٧٩
اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب
— تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، ب ت